الدلالة المجازيَة و أثرها في توجيه آيات العقيدة و آيات الأحكام

بوفوس نصيرة

جامعة سيدي بلعباس / الجزائر

ملخص :

إذا كان المجاز قد شغل اهتمام و جهود اللّغويين ،فأسهبوا في الحديث عنه ،باعتباره فنا من فنون البلاغة العربية ،و مظهرا من مظاهر التغيرات الدلالية ،و أسلوبا جماليا لما فيه من توسع للمعنى ،و فتح لمجال التخيل و التأمل بأوجز عبارة. فقد اتخذ وسيلة للدفاع عن صرح هذا الدين.

نسعى في هذا المقال إلى بيان كيف أصبح المجاز في يد علماء الكلام و علماء الفقه كأحسن معين ،و أنجع أداة لتأويل آيات الكتاب الحكيم ،وإبعاد كل ما يوهم التناقض والاختلاف في القرآن في ضوء معتقداتها ومبادئها .

و كيف أدى التوظيف المجازي للدلالة في مستوييه التركيبي و الإفرادي إلى الخروج بدلالة النص القراني عن معانيها الأوائل إلى معانيها المجازية ،سواء بالنظر إلى اللفظة المفردة على أنها مجاز في الكلمة ،أو بالنظر الى الجملة ككل باعتبارها مجاز في المركب .

Abstract:

The metaphor was the centre of interest and efforts of the linguists; therefore, they talk so much about it since it is an art of the Arabic language rhetoric and one of the aspects of connotation changes. It is also aesthetically style because it has a deep meaning, and is area of visualization and meditation. It is taken now to protect the Islamic religion.

We seek in this article to show how the metaphor ,has become in the hand of scientific speakers and figh scholars as the best and the most efficient tool to interpret verses of the holy Koran and take away all that give the illusion and contradiction and difference in the Koran in light of the beliefs and principles.

And how the functioning of metaphor results of both compositional, and individual levels to the connotation of the quoranic text of the first meanings to the metaphorical meaning whether to look into the single word to be metaphor in the word or to look at the whole sentence to be metaphor in the complex.

مقدمـــة:

إنَّ المتمعن في كتاب الله ليجد أنَّ الشارع الحكيم قد استعمل بعض الألفاظ مرَّة فيما وضعت له عند التخاطب وهي الحقيقة، و مرة اخرى في غير ما وضعت له أولا في أصل التواضع وهذا ما يسمى بالمجاز.

و المجاز، *باعتباره ظاهرة لغوية راسخة في لغة العرب* تتداخل فيه العقيدة مع الأحكام الشرعية واللّغوية.ونظرا لتردد الكلام بين الحقيقة و المجاز أثر ذلك في اختلاف العلماء و تباين أرائهم ،فهناك من يطفو على السطح فلا يرى من الآية إلا ظواهر مفرداتها ،فيحمل دلالتها على الحقيقة ،و منهم من يغوص و ينفذ إلى الأعماق فيصرف الألفاظ عن حقيقتها إلى المجاز اعتمادا على قواعد اللّغة ،و على موروث العرب في تأويلاتهم التي لا تجافي منطق اللّغة .

و هذا الاختلاف في الآراء نتج عنه اختلافهم فيما يستفاد من النّصوص من أحكام.

و لكي نظهر أثار هذا الخلاف وقع اختيارنا على نموذجين مختلفين من آي القرآن ،أحدهما يتضمّن حكما عقائديا و الآخر حكما فقهيا ،و ارتأينا تسليط الضوء من خلالهما على كيفية توجيه الدلالة ،على ضوء معتقد كل فرقة و مبادئها و تعدد مآخذها.

النص الاول:

قوله تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ البقرة/7.

هذه الآية الكريمة فيها حكم عقيدي و بحكم ظاهر لفظها جعل الفريقين المعتزلة و الأشاعرة يقفون من تحديد دلالتها و الحكم الناتج عنها على طرفي نقيض.

فالمعتزلة لما تقرّر في أصولهم أنّه تعالى لا يخلق أفعال البشر، وأنّه لا يجوز أن يحول الله تعالى بين الإنسان و الإيمان ،لأنّهم ارتضوا مذهب حرية الإرادة الإنسانية و صرحوا بأنّ الإنسان هو الذي يخلق أكثر أفعاله ،" إذ كيف يُكلف الإنسان و يُسأل و يحاسب إن كان مجبرا؟. "[1]

و لما كان الختم يفيد بدلالته الظاهرة على معنى المنع و الحيلولة مما يدل على أنه تعالى" قد منعهم من الإيمان "[2] . و " أنه أراد من الكافر الكفر،"[3] عمدوا إلى تأويل هذه الآية تأويلات يوفّق بينها و بين أصولهم الكلامية ،فخرّجوا دلالاتها تخريجات مختلفة يغلب عليها عموما التخريج بالحمل على المجاز. و في هذا تنزيه لله عن "الظلم و الجور فهما منفيان عنه تعالى"[4] بدليل قوله- عز و جل- : ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ فصلت/ 46 ،﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ النحل/118.

و لهم في ذلك تفصيل :

فتارة نظروا من حيث الدلالة على الإسناد فجعلوا دلالة إسناد الختم إلى الله تعالى مجازية ،و اعتبروها من باب المجاز العقلي أي ؛إسناد الفعل إلى سببه ،فالخاتم في الحقيقة هو الشيطان أو الكافر ،"إلا أنّ الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره و مكّنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب." [5]

و تارة أخرى نظروا إلى الجملة فحملوا الآية على التمثيل- استعارة تمثيلية- ؛ فلا ختم و لا تغشية و إنّما " تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كُلّفوها و خُلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها و بين الانتفاع بها بالختم"[6] و التغطية و الطبع.

و مرّة ثالثة نظروا في دلالة اللفظ المفرد أي؛ لفظ الختم فجعلوها دلالة مجازية و حملوها على الاستعارة. كما قال الزمخشري :" فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفد فيها و لا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه و استكبارهم عن قبوله و اعتقاده، و أسماعهم لأنها تمجّه و تنبو عن الإصغاء إليه و تعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، و أبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة و دلائله المنصوبة كما تحتليها أعين المعتبرين المستبصرين ، كأنما غطى عليها و حجبت و حيل بينها و بين الإدراك." [7]

أو أنّ الختم و الطبع هو السواد في القلب، كما يقال " طبع السيف " إذا صدئ، من غير أن يكون ذلك مانعا لهم عما أمرهم به.[8] و نظيره في كلام العرب: طارت به العنقاء ، إذا طالت غيبته.

و هذه التخريجات التي برع في تحقيقها الزمخشري لا تأباها اللغة العربية و طرائقها التعبيرية بل هي من جوهرها و مقتضاها في بعض الأحيان عندما يستحيل حمل الكلام على دلالته الظاهرة ؛و ذلك إذا تعارض مع العقل أو مع الواقع أو المقرر الاعتقادي.

و على هذا المنوال راح المعتزلة يؤوّلون الآيات التي يفيد ظاهرها الجبر، مثل قوله تعالى: ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾ البقرة / 26 ،كذلك كل الألفاظ القريبة من معنى الختم كالوقر و الأكنة، و الطبع ، و الرين على القلب ،﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾الكهف/57،﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾الأنعام/ 25، و﴿ **وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ التوبة/87 ، ﴿ **بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ المطففين/14 .

أمَّا الأشاعرة فقد انحازوا الى الدلالة الظاهرة للآية و لم يعدلوا إلى التأويل و التخريج الدلالي بالمجاز أو بغيره ؛لأنَّهم لو قالوا بالمعنى المجازي الذي ذهب إليه المعتزلة ،لتعارض ذلك مع أصولهم الكلامية ؛لأنّ أفعال العباد في مقرراتهم مخلوقة لله تعالى.

فالختم في مفهومهم "هو خلق الكفر في قلوب الكفار" ،أو هو خلق الداعية [9] التي إذا انضمَّت إلى القدرة [10] صار مجموع القدرة معها سببا موجبا لوقوع الكفر ،و تقريره ان القادر على الكفر اما ان يكون قادرا على تركه او لا يكون ،فان لم يقدر على تركه كانت القدرة على الكفر الموجبة للكفر في القلب ختما على القلب و منعا له عن قبول الإيمان .[11] فالله تعالى لما حكم عليهم بأنَّهم لا يؤمنون ذكر عقيبة ما يجري مجرى السبب الموجب له.[12]

النص الثاني:

قوله تعالى: ﴿ يَا **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ** ﴾ المائدة/6

لا يخفى على الباحث في كتب اللّغة العربيّة ،و كذا الباحث في كتب التفسير ،أنَّ بعض الحروف تتعدَّد معانيها ،و تتباين دلالتها بحسب المعنى الذي تؤديه داخل سياق النص ،و هذا يؤدي بالضرورة إلى اختلاف المفسرين و الفقهاء في أحكامهم و مسائلهم الفقهية ،نظرا لما لهذه الحروف من صلة في *الفَّهم* و استنباط الأحكام من نصوص القرآن الكريم ،سواء بطريق الاجتهاد أو التأويل.

و ما هذا الانفتاح الدلالي لهذه الحروف إلا لاحتمالها تأويلات كثيرة بحسب أصل وضعها ؛إما بسبب الاشتراك و إما بسبب دوران الحرف بين الحقيقة و المجاز ."هذا الاحتمال يُوجد عند المفسرين ترددا في معنى الآية ،فيلجا الى الترجيح بين هذه المعاني المتعددة "[13] حتى يستقيم معنى الآية لديهم.

فمن بين حروف المعاني في اللغة العربية سيقتصر حديثنا في هذا المقام على حرف " الباء" الوارد في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ**﴾المائدة/6.

الفعل مسح مشتق – في عرف اللّغة – من المسح ، وهو إمرار الشّيء على الشّيء بسطًا [14] بأداة أو نحوها ، والأصل فيه أن " يعدَّى إلى المفعول بنفسه ،و هو المزالُ عنه" [15] ؛كقولك : مسح بيده رأس اليتيم ، ومنه قول الشاعر

مسحت بأطراف البنان مدامعي فصار خِضابًا في يدي كما ترى [16]

وقد يُعدَّى " إلى آخر بحرف الجر"[17] كالباء ؛كقولك : مسح برأس اليتيم ، ومنه قول الشاعر لعلي بن زياد:

يا بن الذي مسح النبي برأسه ودعا له بالخير عند المسجد[18]

إن القارئ لتفسير هذا الخطاب القرآني السابق الذكر ،ليجد اختلافا بين العلماء في القدر المأمور بمسحه من الرأس في الوضوء ،والظاهر أنَّ هذا الاختلاف قائم في أصله على اختلاف لغوّي ،و هو "الاشتراك الذي في الباء في كلام العرب ."[19]

فمن قدح في نفسه حمل الباء على الدلالة المجازية إمَّا من باب زيادة الحرف ،فتكون الباء في هذه الحالة "مؤكّدة زائدة ـ وهو ظاهر مذهب سيبويه ـ ، و ليست للتبعيض."[20] ، فيكون المعنى : امسحوا رؤوسكم. فاستنادا على هذا المعنى ،اوجب المالكية و الحنابلة في أرجح الروايتين عندهم ،مسح جميع الرأس.[21]

و هذا العدول عن المعنى الحقيقي الظاهر لم يبنى عن هوى في نفس صاحبه و انما تؤكّده اللّغة ،" لأنَّ المسح معلق بما يسمى رأسا و جملة الرأس تسمى رأسا ." [22] دون أبعاضه .

و إمَّا أن تكون الباء هنا للتبعيض عرفا؛ لأنّ" العرف يقتضي الحاق المسح بالرأس إما جميعه و إما بعضه لأنّ المعقول من قولنا مسحت يدي بالمنديل في العرف ما ذكرناه " [23] ، فيكون المقصود من الآية: بعض رؤوسكم، فاختار الشافعي و أبو حنيفة و الشريف المرتضي هذه الدلالة فقالوا بمسح بعض الرأس ،و لو شعرة واحدة في حد الرأس [24] ،ربع الرأس عند الحنفية.

ومال فريق أخر إلى أنّ الباء هنا وظفت على حسب أصل وضعها و هو الإلصاق[25] ، استنادا على رأي البصريين الذين يجعلون للباء دلالة واحدة أصلية . يقول القاضي عبد الجبار : "إنَّ ظاهر الباء في اللّغة للإلصاق ،و قوله (امسحوا برؤوسكم)يفيد من جهة اللغة ،مسح جميع الرأس [26] و الالصاق "هو أصل معانيها ،و لم يذكر لها سيبويه غيره."[27] ؛أي "الصقوا المسح برؤوسكم" ،و خالف البيضاوي هذا التأويل "بأن هذا الحمل لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما لو قيل : امسحوا رؤوسكم"[28] .

و استنادا على الدلالة العرفية قال عبد الجبار: أن " العرف يقتضي الصاق المسح بالرأس فقط : الكل أو البعض."[29]، و عليه :

– فمن رأى الباء للإلصاق أوجب التعميم ؛فإن قولك : مسحت برأس اليتيم ، يقتضي مسح جزء من الرأس ، ومسح الرأس كله . قال الزمخشري : المراد إلصاق المسح بالرأس ، وماسحُ بعضه ومستوفيُه بالمسح كلاهما ملصق المسح برأس .

و أجاز ابن تيمية أن تكون الباء للإلصاق لكن مع دلالتها على استيعاب الرأس كاملاً بالماء[30]. كما أجاز سيبويه والفراء مسح كامل الرأس ، محتجين بأقوال العرب: هزه وهز به، ومسحت رأسه وبرأسه، وكّلها بمعنى واحد"[31]

– ومن أجاز نيابة الحرف عن الحرف و اعتبر الباء مجازية دلالتها التبعيض ،اجاز مسح بعض الراس و لو شعرة.

و بناء على ما سبق يتبين لنا بيانا لا مراء فيه أنَّ الخطاب القرآني ما هو إلا نص لغوي ،وأنَّ المفسرين و الفقهاء لم يقفوا موقفا واحدا من الدلالة اللّغوية عند مقاربة كلام الله تعالى ،و لم يتفقوا على تأويل واحد للآية القرآنية ،بسبب تعدد الدلالة و التوسع في اللّغة العربية ،ساعدهم ذلك على خدمة معتقداتهم وآرائهم التي تبنوها .

و لا يفوتني في هذا المقام أن أؤكد على أنَّ كل من أراد أن يرصد عن قرب اختلافات العلماء ،و كيفية توظيفهم للّغة لا بد أن يكون ملماً بقدر لا بأس به من سنن العرب في القول و طرائقها في التعبير،و لعل هذا هو الذي جعل عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – يقول : لا يقرأ القرآن إلا عالم باللّغة العربية.

المصادر و المراجع :

1- إبراهيم بن محمد البريكان، القواعد الكليّة للأسماء و الصفات عند السّلف، دار ابن القيم للنشر و التوزيع، الرياض . المملكة العربية السعودية، ودار ابن عفان للنشر و التوزيع القاهرة ،جمهورية مصر العربية ،ط 1 ،1425 هـ /2004 م ، ص149.

2- القاضي عبد الجبار عماد الدين أبو الحسن بن أحمد الأسدآبادي، ، تنزيه القران عن المطاعن ، دار النهضة الحديثة ، بيروت . لبنان، د ط، د ت ،ص 14.

3- احمد عرابي ،جدلية الفعل القرائي عند علماء التراث، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010، ص95.

4- اشرف حافظ، الجبر و الاختيار في الفكر الإسلامي، دار النخلة ، الجماهرية، ط1 ، 1429هـ /1999م ،ص 39.

5- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر ، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح/ عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ،الرياض، ط 1 ، 1418 هـ. 1998م. ،ص 41 .

6- الزمخشري، تفسير الكشاف ،ص 41 .

7- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

8- ابو الحسن الأشعري ، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلّين، تح/محمد محي الدين عبد الحميد، ط1 ،1369هـ . 1950 م ، ج1 ، ص297.

9- هي: المرجح الذي اذا انضم الى احد طرفي الممكن ، و كانت القدرة حاصلة وجب حدوث الفعل ، و ان لم يوجد هذا المرجح فلا فعل، أنظر: محمد صالح الزركان، فخر الدين الرازي و آراؤه الكلامية و الفلسفيّة، دار الفكر، د ط، د ت، ص535.

10- و هي في نظره الصحة و سلامة البنية ، انظر محمد صالح الزركان، فخر الدين الرازي و آراؤه الكلامية و الفلسفية ، ص534 .

11- الرازي، فخر الدّين محمد بن عمر بن الحسين، التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، تح/ عماد زكي البارودي ،المكتبة التوفيقية ، القاهرة . مصر، د ط، د ت.، ص52.

12- المرجع نفسه، ص53.

13- عبد الإله حوري الحوري، اسباب اختلاف المفسرين في تفسير آيات الأحكام، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم،1422هـ /2001م ،ص309 .

14- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، نسخة وورد، ج5 ص241.

15- الحَسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح/ فخر الدين قباوة،و محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان، ط1، 1413هـ /1992م ، ص44.

16- الشبكة العنكبوتية، WWW. Bayan7.co

17- الحسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني،ص 44.

18- محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تح/عبد الرحمان التزي و عبد الكريم العزباوي ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة 1418هـ /1997م ، ج 6 ، ص654.

19- محمد بن رشد القرطبي ، بداية المجتهد و نهاية المقتصد ،دار المعرفة ،بيروت . لبنان ،ط 6 ،1402 هـ . 1982م ،ج1 ص12.

20- القرطبي، أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تح/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسّالة للطّباعة و النّشر و التّوزيع، بيروت . لبنان ، ط 1 ، 1427 هـ / 2006م ، ج 7 ص 335.

21- وهبة الزحيلي، الفقه الاسلامي و ادلته ، دار الفكر،ط2، 1405هـ . 1985م ،ج1ص 221 ،انظر كذلك : الجواهر الحسان 447/1.

22- محمد بن علي ابو الحسن البصري، المعتمد في اصول الفقه، تح/ محمد حميد الله و آخران، دمشق، 1384هـ /1964م ، ص39.

23- المرجع نفسه ،ص40 .

24- وهبة الزحيلي، الفقه الاسلامي و أدلته ،ج1 ،ص221 .

25- الزمخشري، الكشاف 598/1 ، محمد رشيد رضا، تفسيرالمنار6/ 226 ، ابن كثير ،تفسير القران العظيم 25/2.

26- محمد بن علي ابو الحسن البصري، المعتمد في اصول الفقه، ج 1 ،ص 334.

27- الجنى الداني ص36 .تاج الدين السبكي، الاشباه و النظائر ص214 ج2 و معترك الاقران ص 90.